يودّعون يوم فرح ويستقبلون مثلهُ وكان هنري يكرّر مرارًا على ولده « اياك بنيَّ وزلّات الشبيبة فانّها تعمي العقل وتضرب على البصيرة وتؤدي بالمرء الى اقطع المآثم. فلولا نعمة الله ورحمتهُ بي لكنتُ الان في هوّة البؤس والتعاسة »

رحلة ابرهيم الحكيم الحلبي الى مصر

عني بنشرها الاب لويس شيخو اليسوعي (تتمّة)

ثم انهُ في ثاني الايام. بعد ما عملوا لنا كل اكرام. اخذونا الى مكان المنتدام. قد راق ماؤهُ. وزاد صفاؤهُ. واعتلّ هواؤهُ. وتطرّت ارجاؤهُ. وتلامعت حصباؤهُ. وفيهِ من لطف النسيم. ما يشفي السقيم. ويداوي جرح الكليم ويغني عن الحكيم. ويحيي الميت الرميم حتى حسبناهُ من فردوس النعيم. وفيهِ ما يدهش الابصار. ويحير الافكار. من اشجار واثمار وازهار وانهار. وتغريد الاطيار ليلًا ونهار. حتى خلع كل منا العذار دون شرب العُقار. لانهُ ما ناح الحمام. الّا وزاد الغرام. وما غنت القماري. الّا وازاحت اكداري. وما صدحت البلابل. الّا وهاجت البلابل. وما صوّت الشحرور. الّا وجلا همّ الصدور. وما سجع الهزار. الّا واثار الافكار. وحرّك التذكار للديار ونظم الاشعار:

لقد زاد الجوى صوتُ القماري ... وذكرني الاحبّة والديار
وتغريد الحمام اذا تبدّى ... بدا فينا الغمامُ الى الديار
وقلت لرفقتي يا قوم هانوا ... لنغتنم المنى في ذي الصحاري
فدارت بيننا كاسات راحٍ ... وريحانٍ وورد مع عُقار
وقد ضرب الغمام لنا خيامًا ... سرادقها كسوت تلك البراري
ومرّ بنا نسيم البان لمّا ... ابان لنا صبابة ذا النهار
وقد ذرفت عيون السحب درًّا ... كما زهر الربى حال الفخار
وكللها بياقوتٍ ثمينٍ ... وتيجان اللجين مع النضار
فنمّ اريجها في القطر طرًّا ... وعطّر نشر هاتيك القفار
وذكرني شذا الشهباء لمّا ... يضوع عبيرهُ وقت السحار
فحيّا الله تربتها وماها ... وطيب نسيمها كل النهار
وحيّا اهلها املًا كراماً ... ذوات الفضل حوان الفخار

ثم اننا بعد ان قضينا الاوطار من هـذه الاقطار . ارتحلنا من بيروت في اليوم التاسع . ورفعنا الشُّرُع وسرنا عن تلك البلاقع . الى ان توسطنا بين بيروت وصيدا . فطلع علينا قرصان الانكليز فابتدأوا يرمونا بالاطواب والمدافع . حتى كلَّ منا هلع . وعلى وجهه وقع . واحتسبناها اشدّ المواقع . وما بقي لنا منها مانع ولا دافع . وبعد ما أيس القبطان من الحرب العوان طلب الامان . وابتاع السفينة . ووضع ابنهُ عندهم رهينة . وذلك لاجل الحروب التي بينهم واقعة . صارت بينهم المبايعة من غير منازعة . فلمَّا خلصنا منهم . وابتعدنا عنهم . عاد كل منا لله ساجد . ولفضله شاكرًا وحامد . وانَّما طلع علينا ريح شارد واوردنا شرّ الموارد . وساقتنا الى ظهر البحر . وابعدنا عن كل فج وبرّ . فاستقمنا عشرة أيام ونحن تائهون . لا نعلم الى اين متوجهون . وذلك مع كثرة اختلاف هبوب الارياح . وفرط الاضطراب والاكداح . وقلة النوم وعدم الارتياح . حتى عدنا كالاشباح العادمة الارواح . وقد ارانا البحر كثرة اهواله وسوء احواله . وسرعة انتقاله وشدة نكاله وعظم وباله . وتقلب احواله وفرط هجره ومطاله . ولمَّا لم يبقَ لي مجال لاحتمال هذه الانتقال . انشدتهُ بهذا المقال :

لهاك الله في بلوى فعالك ... فما ازرى نكالك في عمالكْ
تنشْ برقةٍ وصفاء قلبٍ ... تصرعنا بكيدك واحتيالكْ
تذيق لبعض قومٍ عذب كاسٍ ... وتسقي الاكثرين طلا نكالك
فكم غرَّبت في ريحٍ اناسًا ... وقد خسروا الحياة مع المالك
وكم غلَّت من بطلٍ همامٍ ... بدون الحرب اضحى في حبالك
وكم غرقت في ذا اللج قومًا ... فباتوا منمرين بسوء بالك
ألا يا غادرًا يا شر باغٍ ... إلامَ المكرُ دوبًا في اغتيالك
فلا كانت بك التجار تسعى ... ولو اغنيتهم بجنى نوالك
لقد اسقيتنا غصص المنايا ... وشمنا منك انواع المهالك
فكم آليتُ في عمري بألَّا ... احلَّ الغمر حيثما انت سالك
ولكنَّ الضرورة الزمتني ... بربي النفس في هذه التهالك
فانعم ... الاعادي رواة الكفر موجبي المسالك
وعُدَّ ... الثبر تسعى على زجّ الرماية في المهالك
وقد صرنا بهذا اليوم طوعًا أسارى في يمنك مع شمالك
ألا افعل ما تشا فينا ونحن ... لما فوّقت فينا من نبالك
ولكن قد رجونا البكر مريم أمّ الربّ سيدة المالك

لتُنجينا بهذا اليوم مما أصبنا به ومن سوء المسالك
لنسديها السلام على التوالي ونشكر فضلها الساعي لذلك

ثم انهُ من بعد ذلك منَّ علينا العزيز المالك. وانقذنا من تلك المهالك. واهدانا الى خير المسالك. فوصلنا الى الينا. وعاد كل منَّا امينا. فالقينا المراسي. وارتحنا من هول ما كنا نقاسي. ولم يبقَ علينا سوى قطع العقبة. فقطعناها بكل غلبة لانها عسرة وصعبة. اذ هي ملتقى البحرين. وموضع المنيَّة والحين. وطلعنا الى دمياط. بهجة ونشاط وسرور وانبساط. فرايناها بلدة لا تُمدح ولا تُذم. الَّا انها المناص من اليم. والخلاص من الغم بل من سفك الدم. والنجاة من التيَّار. وما فيهِ من الاخطار. فما اقمنا بها الَّا زماناً قليل. حتى سرنا بلا تمهيل في بحر النيل. بكل سرور وتهليل وسير وتثقيل ميلًا بعد ميل. بدون اضطراب واخفاق. حتى طلعنا الى بولاق. ونحن في غاية الاشراق الى وصولها والتلاق. ومن هناك وصلنا القاهرة في ليلة زاهرة. فوجدناها مدينة عامرة وخيراتها وافرة. وارزاقها متكاثرة واموالها متياسرة ومكاسبها متبادرة. ومتاجرها ظاهرة وامورها نادرة ولغيرها من البلاد مغايرة. وفيها العمارات الشاهقة والبنايات الفائقة والقصور المتناسقة. والجدران الباسقة والعقول الحاذقة. والافكار الرائقة والألسن التي بالفصاحة ناطقة. وهي مدينة زاهية الجمال زاندة الكمال. غزيرة الاموال وافرة الاغلال جامعة الاشكال متغيرة الاحوال. فلما رايت ما هي عليهِ من الحال عراني الانذهال واشتغل العقل والبال. بوصفها على هذا المنوال:

يا سائلي عن حال مصر انها اعجوبة بين البلاد الباهره
تزهو على الدنيا بحسن صفاتها وبحسن ما فيها يباهي فاخره
قد زُيِّنت وتزخرفت ببهائها حتى حلتْ في كل عين باصره
وكانها وقصورها وربوعها فلك البروج بها النجوم الساتره
والنيل مع خلجانه فيها حكى حبل المجرَّة حافها كالدائره
سادت على كل الورى بمناقب خُصَّت بها فلذاك صارت نادره
قهرت ملوك الارض طرًّا وازدرت بولاقها فلذاك تدعى قاهره
جمعت فتى الاقطار ثم محاسن الـ الامصار ثم غدت بها متفاخره
وتطفَّت نحو الغريب ولم تزل تبدي لهُ ودًّا وحسن عاشره
وكانَّها شُغفت بحب نزيلها بل لم تزل طبعًا اليهِ ناظره
ما زارها يومًا كبيرٌ قلبهُ الَّا وهامت فيهِ تجبر خاطره
ما أمَّها ذو فاقةٍ بودادهِ الَّا وعاد بثروةٍ متوافره

يا حبذا اوطاضا يا حبذا ... كانها تلك الاسود الكاسره
لاسيما التجار مع ارزاقهم ... من سائر الدنيا انتها زائره
تجمي التريل بارضها وتجبره ... من كل غائلة عليه جائره

ثم ان لهذه البلدة ثلثة مواسم كبار. ذوات اعتبار. اولهم يوم قصر النيل. فهو يوم مشهود عليه التعويل. والثاني يوم طلوع الحج والمحمل. وهو اشهر واجل. والثالث يوم دخول الوزير. فهو يوم خطير ومفترج شهير. تجتمع فيه الوجاقات وتترتب به البُلكات. وتصطف الآلايات وترتفع الرايات وتُشهر السلاحات. كالخوذ العادية والدروع الداودية. والرماح الخطيّة والسيوف الهندية والخيول العربيّة المكيّة. بنظام عجيب وترتيب غريب

ثم ان لها اربعة مقاصف حسنة ظريفة. اولها مصر القديمة فهي بلدة ذميمة الا انها عظيمة. ذات قدر وقيمة لكثرة اموالها العميمة واهويتها السليمة. وثانيها الجيزة وهي بلدة وجيزة. تكنها عزيزة لمبانيها الحريزة. وربوعها البهية ورياحها الطيبة الليّنة. وقد احاط بها البحر. اكثر من البر. وهي تشع كالنبراس. بمجد المقياس. وثالثها المنيل (؟) وهو مكان ازهى واعدل وابهى واجل واسمى وافضل. لان فيه مائة جميزة على حافة النيل مغروزة وكل واحدة اكبر من موزة واعظم من شجرة جوزة. وله ظل ظليل ما له من مثيل. ونسيم عليل غير قليل. يهبّ من بحر النيل بغير تبديل. وهو يشفي العليل ويطفي الغليل. ولذلك قلت فيه هذا القول الجليل:

رعاك الله من درج ظليل ... يميد البُرء للمضنى العليل
يمرُّ به النسيم بلا انقطاع ... ومرّ الشمس مقطوع السبيل
ونشرته وخضرته براقي ... مدى الايام في كل الفصول
ويخضل الفيافي ليس تلقى ... سوى غيض على روض خضيل
أحاط به الغدير فساد يحكي ... رياض زمرد في سلسبيل

ورابعها الروضة وهي مشتملة على غياض ورياض. ومناهل وحياض. واشجار واثمار وكروم وازهار. وبحار وانهار وتيار وابحار. وهي تدهش الابصار وتحير النظّار. وقد قضينا فيها كل نهار يعد من الاعمار. حتى اخرجنا ابكار الاشعار من تيّار الافكار:

يا لها روضةً تحاكي الفراديس ... كم بها سائل الغصون وماش
كم بها من قضيب بانٍ واسٍ ... يتجلى في الرياض مثل العرائس
كم بها دوحة وروض وحوضٌ ... وانهال الما حيث ما كنت جالس

كم جا من خمائل مزهرات ومروج كاتها من مناديس
وكأنّ السحاب قد دبجتها بل وشتها ايدي الحسان العوانس
بلجين وعسجد وجمان ولآلٍ من فوق خضر الملابس
تاه عقلي من حسن ما شمتُ فيها زُينت مع نوادرٍ ونفائس
قلتُ هذه جنات عدن وفيها كوثر النيل يسقي هذه النرائس

وقد قضينا في هذه الاماكنة الحسنة ثلاثة ايام. تساوي ثلاثة اعوام . وقد كنا مع بعض الاصدقاء في وليمة عظيمة. لها قدر وقيمة. ليلنا في الجيزة. ونهارنا في الروضة تحت الجيزة . وهذه الاماكن كجزيرة في وسط النيل. تضيء كالقنديل. ثم ان النيل في ايام ازدياده تيار. ما لهُ قرار ولا عليهِ عيار. تمرُّ به القوارب والمراكب ليلًا ونهار. بعضها للاسفار وبعضها للبسط وبلوغ الاوطار. والنشوة والسكر والعقار وخلع العذار. وتاهيك من سماع الآلات وحسن الاصوات . من الرجال والقينات. وضرب الاوتار والجنك والطار والعود والمزمار . وغناء الموالي مع نشيد الاشعار . وكلما وصلوا الى جماعة استقاموا عندهم مثل ساعة واحسنوا الصناعة. وقد كنت مع هذه النشائق وطيب الاوقات لم أكفّ عن تذكار الاوطان. وما بها من حسن منزل ومكان وقصر وايوان. وغيض وبستان. وروض وغدران وحوض وميدان وحسن المساكن والسكان. ومنادمة الخلان وموافقة الاخدان ومصادقة الاخوان وطيب ذلك الزمان. حتى تحرك الجنان لنظم هذه الابيات الحسان:

ريح الصبا ان جزتَ بالاحباء حيّي الربا وسلم الشهباء
بلّغ الى الاوطان منا انعمًا عنفوقةً بسواطع اللألاء
وقل السلام عليكِ من صبٍ الى لقياكِ عاد ممزق الاحشاء
يصبو اليك من صباه لما بكِ من حسن خلان وصدق اخاء
فمسي صباحًا يا ديارَ احبتي واخضلّي بالرند وبالاقحاء
دار السلامة والكرامة والهنا دار الرضى والسلم والارعاء
دار تكلُّ اللسنُ عن اوصافها ويعود افصحها كما الفاقاء
ماذا اقول اذا وصفت صفاتها وباي موضوع اجيد ثناءي
هل ابدا من حسن المناخ وارضها وتراها مع لطف الهوا والماء
او يكتفي وصفي في جمال رياضها وغياضها وحياضها الحسناء
او عن فواكهها وحسن ثمارها ولذيذ مطعمها وطيب حساء
او حسن زخرفة القصور وما جا من منزلٍ سامٍ وزهو بناء
او عن جليل صنائعٍ وبضائعٍ تأتي وتخفى من مدى الدنياء

او عن عزيز مكاسب ومواهب وتاجر باهت بفرط غناه
او عن محاسن اهلها وجمالهم وكمال منظرهم بعين الراءي
كم ذا اعدّد في محاسنها التي فاقت محاسن سائر الانحاء
وفقدت فريدة عصرها وزمانها ممدوحة القرباء والبعداء
لكنّ را أسفاه لم تبقَ على ذاك الهنا والعزّ والارخاء
وتشتّت ابناؤها وترددت في كل ناحية وقطر ناء
وغدًا يسود جا العدو المعتدي ويكيد ابناها بكل اذاء
أترى يعود الله يجمع شملنا بالاهل والخلّان والابناء
وتقرُّ عيني باللقا ويطيب قلبي بالوصال وتزري اعضاءي
واقول هذه منيتي قبلتُها واجيد شكرًا للعلي مولاءي
يا ربِّ وفق لي الرجوع لارضها يا رب سهّل اوبة المتاءي
لتعود عن قرب الى اوطاننا بشفاعة البكر آمك العذراء

اما ما في هذه البلدة من حسن منازل ودور . وعلالي وقصور . وقاعات وخدور فهو شيء مشهور . وزايد الزينة والحبور وشي مستظرف ووافر الشرف . ومحتوي على تحف وطرف مما لا يوصف ولا يكيّف ومن جملة ما راينا في هذه المدينة ما حظينا به بدخول بيت احد السناجق . في وقت موافق . للفرجة عليه لحسن مبانيه . ولكثرة عجب واضعيه . فلما نظرنا ما هو عليه من حسن النظام . وزخرف والهندام . فصدقنا فيه الكلام بان لا يوجد مثله بحلب ولا بالشام . وقد دخلناه في الساعة الرابعة وخرجنا منهُ في الساعة السابعة ولا زلنا طالعين من درج الى درج . ومن ضيقة الى فرج . حتى عرانا الزعج وعدلنا عن الخُرج وطلبنا المفر والمخرج . وقد ابقينا مواضع كثيرة . كانت يدنا عنها قصيرة . ورايتا فيها قاعةً . زاهية الصناعة . لم يكن لي على وصفها استطاعة . فكل حيطانها التي داخلها من المرمر . الابيض والاصفر والاسود والاحمر . وهي مفروشة بالديباج . المنسوج بالفضة والذهب البرّاج . وقد يوجد مثل هذا السرايا سرايات ونظير هذه العمارة عمارات

فهذا شرح حالنا وكيفية ارتحالنا . وما عاينا في البر والبحر . وما شهدناه في الغربة وديار مصر . وقصدنا فيه الاخبار بوجه الاختصار . فالمرجوا اذًا من الفضل العميم ان تذكروا العهد القديم . والعود السليم . وتنتقدوا هذه الرسالة خير انتقاد وتصليح ما يوجد فيها من الفساد . من لفظ شارد وغلط زائد . ونثر بارد . لتنتفي منها العيوب وتحسن

الاسلوب وتخفّ على القلوب . ويكثر المرغوب ويحصل منها المطلوب . وعلى الله تعالى غفران الذنوب يا انهُ الملك المرهوب . وعليهِ الاتكال

ابن الامس ورجل الغد

خواطر بقلم « ابن عشرين »

الاديب ا . م . احد المتخرجين في كليتنا

في الخامس عشر من شهر تموز الفائت عند الساعة السادسة مساء بينما الموسيقى تعزف بالحانها المطربة واصوات التهليل تخرقُ كبد السماء تحت اقواس النصر الخضراء وسعوف النخل الباسقة خطوتُ اول خطوةٍ خارجَ جُدران المدرسة التي تخرَّجت فيها وعلى جبيني اكليل الظفر وفي يدي الشهادة النهائيَّة غنيمتي المكتسبة بعد قراع وكفاح ثماني سنوات . . . .

خرجتُ على عربة فاخرة يقلُّها جوادان فخرَقتْ الجمعَ المحتشدَ وسارت تطوف مدينة بيروت . . . فحسبتُني احد قوَّاد الرومان المظفرين صاعدًا الى هيكل الكابيتول ليقدّم للآلهة المحرقات وهو مكلَّل بالغار على مركبة النصر يجرّها اربعة من الخيول المطهَّمة والشعب يهلّل والجنود تحيط بهِ بين لمع الصوارم وبريق الحوَذ وصرير الاسلحة وصهيل الخيل وجلبة القوم . . . .

تلك زهوة مضت وصورةٌ انمحت وخيالٌ قد زال فكأنهُ برقٌ خُلَّب . . . زيَّنتهُ الخيلة ولعبت باشباحهِ كما راق لها . . . مرَّت تلك الساعة ولم يبقَ منها سوى ذكرها . .

صمدتُ الى الكابيتول المسيحي اي جبل الرب فجثوت في كنيستهِ وجثا معي كل من يحبني واجبهُ فرفعتُ محرقةً روحية على مذبح إلهِ الجنود ورب النصر . . . رفعت اليهِ عقلي وارادتي وقلبي وسألتهُ ان يجعلَ في نفسي ما يليقُ بمسيحيّ ابن عشرين . . .

*

والآن انا في الغرفة وحدي امام كتبي واوراقي والسكون حولي سائد . تتكسَّرُ عند عَتَبَتي آخرُ ضوضاء الازقة ويضمحلُّ عند الباب صدى الجلبة وضجيج الاسواق . . عدتُ الى نفسي وقلتُ لنكتب . . .